سمات العطاء الأدبي والفكري
في القرن الثامن الهجري

الأستاذ هلال ناجي

بدأ الغزو في القرن الثامن الهجري الفرنجي الصليبي عام ٤٨٨هـ وانتهى عام ٦٩٠هـ ، أي أنّه جاوز القرنين دكّ خلاله المغول أسوار بغداد قادمين من المشرق ودمّروا حضارة العراق سنة ٦٥٦هـ ، وانطلقوا نحو بلاد الشام عاصفين بإرثنا الأدبي والعلمي والحضاري. وهكذا كان المشرق العربي نَهْباً لغزاة محتلين من غربه وشماله وشرقه. وتحالف التتار والفرنج والكرج والروم غير مرة لاحتلال أرضنا وتدمير إرثنا الحضاري، حتى كانت نهاية الغزاة المغول في معركة " عين جالوت " الخالدة. إن حروبا استمرت قرنين من الزمن هما القرنان السادس والسابع، وغزواً استيطانياً مُريعا قد دَمَّر دونما شك الكثير من موروثنا الأدبي والعلمي والحضاري ومع إطلالة القرن الثامن الهجري أدرك الأدباء والعلماء والمؤرخون العرب المسلمون أهمية الحفاظ على هذا التراث العربي الإسلامي العظيم، فَنَهدوا إلى تصنيف موسوعات كبرى وفنون علمية حفاظاً عليه من الضياع والتبدد، وهكذا بدأ عصر الموسوعات والمتون العلمية والشروح على المتون، وهي السمات البارزة في النتاج الأدبي والفكري خلال القرن الثامن الهجري، مؤمنين بضرورة انتفاع الخلف من معارف السلف وما أبدعته عقولهم، وليقوموا هم بتطوير ما وصلهم شرحاً وتفسيراً.

وأنا في الأصل رجل قانون لا أُلقي الكلام على عواهنه، وإنّما أعضده بالدليل والحجة والبرهان، من أجل ذلك سأبسط صورة الحركة الفكرية في القرن الثامن الهجري ليتضح بالدليل العلمي خطأ تسمية هذا القرن والقرن الذي سبقه بـ " الفترة المظلمة ".

فأماً أنّه قرن الموسوعات الكبرى فحسبنا شاهداً عليه:

أولاً: موسوعة" نهاية الأرب في فنون الأدب" لأحمد بن عبد الوهاب النويري القريشي(ت٧٣٣هـ) وقد طبع منه بمصر حتى الآن أكثر من ثلاثين مجلداً.

ثانياً : موسوعة " مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" لأحمد بن يحيى بن فضل العمري (ت٧٤٩هـ)، وهو في الأصل كتاب في الجغرافية وتقويم البلدان، لكنه تضمن كتباً مبسوطة في التاريخ والتراجم ومختار الشعر والكلام على النبات والحيوان والإنسان، فهي موسوعة لا غنى لباحث في الآداب عنها. وقد طبعها بالتصوير المستعرب التركي العلامة فؤاد سزكين في بضعة وعشرين مجلداً.

ثالثاً : موسوعة " مباهج الفكَر ومناهج العبَر " لمحمد بن إبراهيم الأنصاري الشهير بالوطواط (ت ٧١٨هـ). وهي موسوعة وقعت في أربعة مجلدات، خصص الأول للسماء والكواكب والآثار والأيام، والثاني : للأرض، والثالث للحيوان والرابع للنبات.

وما زالت هذه الموسوعة مخطوطة حتى اليوم.

والقرن الثامن أيضا كان قرن " المتون العلمية" المتخصصة. واكتفي هنا بذكر بعضها مما صنّفه العراقيون من هذه المتون:

١- " الكافية البديعية في علوم البلاغة ومحاسب البديع" لصفي الدين الحلّي (ت ٧٥٠هـ) وهي منظومة في مدح الرسول الأعظم تضمّ مائة وخمسة وأربعين بيتاً في البحر البسيط وتشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعاً من محاسن البديع. وهي تمثل استدراكاً رائعاً على كتاب" تحبير التحرير" لابن أبي الإصبَع المصري(ت ٦٥٤هـ)، وقد شرحها ناظمها وطبع المتن والشرح بتدقيق نسيب نشاوي في دمشق سنة ١٩٨٣ .

٢- منظومة " لوامع الأنوار في نظم غريب الموطأ وصحيح مسلم " لابن رضوان الموصلي محمد بن محمد بن عبد الكريم(ت ٧٧٤هـ) . ونسخة المؤلف ما زالت مخطوطة في مكتبة الأوقاف العامة ببغداد.

٣- " نهج الرشاد في نظم الاعتقاد " ليوسف بن محمد العُبادي العقيلي السُرَّمرّي (ت ٧٧٦هـ) وهي أرجوزة في الفقه الحنبلي، نشرتُها محققة في العدد الأول من مجلة جامعة صدام للعلوم الإسلامية- بغداد ١٩٩٣ . ولهذا العالم متن منظوم آخر في ألف بيت عنوانه " نظم الغريب في علم الحديث ".

٤- منظومة " أنيس الغريب وجليس الأريب " وهي في غريب القرآن، ومنها تحقيقات لغوية بالغة الأهمية، نظمها نصر الله أحمد بن محمد التستري البغدادي المعروف بالجلال البغدادي (٧٣٣-٨١٢ هـ) وكانت منه مخطوطة بمكتبة المرحوم عباس العزاوي.

٥- ألفية في الخط والكتابة عنوانها " العناية الربانيّة في الطريقة الشعبانية " وألفية في النحو عنوانها " كفاية الغلام في إعراب الكلام " وألفية في العروض والقوافي عنوانها " الوجه الجميل في علم الخليل " . هذه الالفيات الثلاث نظمها زين الدين شعبان بن محمد الآثاري القرشي الموصلي مولدا المصري مدفناً(٧٦٥-٨٢٨هـ) وكلها مما نظمه في القرن الثامن الهجري حسبما وجدت في مخطوطاتها. وكنت نشرت ألفية الخط في بغداد سنة ١٩٧٩، وألفية النحو في بيروت سنة ١٩٨٧ بمشاركة أخي الدكتور زهير زاهد، وألفية العروض والقوافي في بيروت سنة ١٩٩٧ .

٦- منظومة في القراءات على وزن الشاطبية، ونظم " النافع " في الفقه وكلاهما لفخر الدين بن النصيح العراقي (ت ٧٥٥هـ).

٧- " أرجـــوزة الأنغام " وهي منظومة في الموسيقى نظمها بدر الدين محمد بن علـــى الأربلـــي سنة ٧٢٩هـــ، ونشرها المرحوم عباس العزاوي في كتابه "الموسيقى العراقية".

٨- " إرشـــاد القاصـــد إلـــى أســـنى المقاصد " لمحمد بن إبراهيم الأنصاري الســـنجاري الشـــهير بابن الأكفاني (ت ٧٤٩ هـــ) - نشرها الشيخ طاهر الجزائري - بيروت ١٩٠٤.

٩- الرسالة العضدية في الوضع لعبد الرحمن بن أحمد الأيجي (ت ٧٥٦ هـــ)، وهي متن علمي يعين ألفاظ اللغة من حيث الوضع.

ومن غير العراقيين:

١٠- عـــبد الله بن يوسف بن أحمد الشهير بابن هشام (٧٠٨-٧٦١هـــ) ومولده ووفاتـــه بمصـــر٠ قال ابن خلدون : ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصـــر عـــالم بالعربـــية يقال له ابن هشام أنحى من سيبويه٠ من تصانيفه المطـــبوعة:" مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" و" أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك" و" موقد الأذهان وموقظ الوسنان " وشذور الذهب في معرفة كلام العـــرب " و" الإعراب عن قواعد الإعراب " و" قطر الندى وبلّ والصدى " و " اعتراض الشرط على الشرط " و " إقامة الدليل على صحة التمثيل وفساد التأويل" و " تخليص الشواهد وتلخيص الفوائد " و " الجامع الصغير في النحو " و " شـــرح قصـــيدة بانـــت سعاد " و " شرح اللمحة البدرية في علم اللغة العربـــية" و " فـــوح الشذا بمسألة كذا " و مسألة الحكمة في تذكير قريب في قولـــه تعالى "(إن رحمة الله قريب من المحسنين)" و " المسائل السفرية في النحو " و " مسائل في إعراب القرآن "٠

١١- ابن عقيل عبد الله بن عبد الرحمن (ت ٧٦٩ هـــ)٠ وكان إماماً في النحو والبلاغة وله " شرح ألفية ابن مالك " وبه اشتهر٠

وانمـــاز القـــرن الثامن أيضاً، بأنه القرن الذي صُنِّفَت فيه أكبر موسوعات الـــتراجم والســـير في المكتبة على الإطلاق. فيه صنّف صلاح الدين خليل بن أيـــبك الصفدي (ت ٧٧٦هـــ) موسوعته الضخمة " الوافي بالوفيات " وقد طبع منها حتى اليوم أكثر من عشرين جزءاً.

وفيه صنّف محمد بن أحمد بن الذهبي(ت ٧٤٨هـــ) موسوعته المعنونـــــة " ســـير أعـــلام النـــبلاء " وقـــد طبعت في خمسة وعشرين مجلداً وموسوعته الصغـــــرى " العِبَر في خبر من غَبَر " في خمسة أجزاء

وفـــيه صـــنّف محمـــد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـــ) موسوعته: " فوات الوفـــيات " وقـــد حققهـــا إحســـان عباس وأخرجها في خمسة أجزاء. و" عيون الـــتواريخ" و هـــو كتاب تراجم أيضا نشرت منه المؤرخة نبيلة عبد المنعم عدة أجزاء بعضها بالمشاركة، ومازال الباقي وهو الأكثر ينتظر النشر.

إن هـــذه الموسوعات وإن كانت كتب سير وتراجم إلا أنها طفحت بنفائس الشعر والنثر والأخبار الادبية، فهي كتب تاريخ وأدب دون شك. ولابُدّ لنا ونحن في معرض الحديث عن موسوعات التراجم والسير المصنفة في القرن الثامن أن نشير إلي أنّ ابن الفُوطي عبد الرزاق بن أحمد الشيباني(٦٤٢-٧٢٣هـــ) صنّف في القرن المذكور أوسع معاجم الألقاب: قال الذهبي في تذكرة الحفاظ ما نصه: " كتـــب من التواريخ ما لا يوصف و مصنفاته وقْرُ بعير. ثم عمل تاريخاً في خمســـين مجلداً أسماه " مجمع الآداب في معجم الأسماء على معجم الألقاب ". وهـــذا المعجـــم العجيـــب شاء القدر أن يسلم الجزء الرابع منه، فنشره العلاّمة مصـــطفى جواد بدمشق في أربعة مجلدات ضخام، فكيف كان الأمر لو وصلنا المعجـــم كـــاملا؟ ثم إنّ أوفى موسوعة في أسماء رجال الحديث صنّفها الحافظ يوســـف المـــزي(ت٧٤٢هـــ) في هذا القرن بعنوان " تهذيب الكمال في أسماء الرجال " وقد طبعه بشار عواد معروف في خمسة وثلاثين مجلداً.

وانماز هذا القرن أيضا بنهود جمهرة من مؤرخيه إلى كتابة تواريخهم فيه، فكـــان ممن طبعت تواريخه : الذهبي وموسوعتـــــــه " تاريخ دول الإسلام "حققه عبد السلام التدمري، وابن كثير(ت٧٧٤هـــ) وتاريخه " البداية والنهاية " وعـــبد الله اســـعد اليافعي (ت ٧٦٨هـــ) وتاريخه " مرآة الجنات "، والأشرف الغساني(ت٨٠٣هـــ) وتاريخه " العسجد المسبوك " وابن الوردي عمر بن مظفر (ت٧٤٩هـــ) وتاريخـــــه " تتمة المختصر في أخبار البشر". وابن خلـــــدون (٧٣٢-٨٠٨هـــ) وتاريخه " كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ". هذه التواريخ المطبوعة أشهر من أن أُفَصِّل القول فيها، وكلها من نتاج القرن الثامن الهجري.

أكثر من هذا أن جُلّ " كتب الطبقات " صُنِّفت في هذا القرن ومنها:

طبقات الشافعية الكبرى لعبد الوهاب بن على السبكي(ت٧٧١هـــ)، وطبقات الشـــافعية الصـــغرى للأسنوي(ت٧٧٢هـــ) والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون المالكي(ت٧٩٩هـــ) في تراجم المالكية، والجواهر المضيّة في طبقات الحنفية لعبد القادر بن أبي الوفاء القرشي الحنفي (ت٧٧٥هـــ) والذيل علـــى طبقات الحنابلة لابن رجب عبد الرحمن بن أحمد البغدادي(ت٧٩٥هـــ)، كلها صنفت في القرن الثامن.

وفـــي مـــيدان البلاغة صنّف جلال الدين القزويني كتابيه : تلخيص مفتاح العلوم للسكاكي والإيضاح في علوم البلاغة، ونالا شهرة واسعة حتى يومنا هذا. ومصـــنفهما واســـمه محمد بن عبد الرحمن لم يكن أعجمياً حسبما توهم نسبته، وإنما هو عربي من بني عجل موصلي المولد وتوفى في دمشق سنة ٧٣٩هـــ.

قلـــت أن القـــرن الثامن هو قرن الموسوعات الكبرى وقرن المتون العلمية المـــنظومة وقرن كتب التاريخ والطبقات الشهيرة، وأضيف إنه قرن " الشروح المبســـوطة على النصوص التراثية المهمة" و أمثل لذلك: بألفية ابن مالك، فقد شـــرحها عالمـــان جليلان من رجال هذا القرن هما: ابن عقيل وابن هشام وقد مرّ ذكرهما.

وأمـــثّل لذلك أيضا: بالغيث المسجم في شرح لامية العجم للصفدي، وبتمام المـــتون في شرح رسالة ابن زيدون للصفدي أيضاً. وبسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نُباتة المصري (ت٧٦٨هـــ).

ويسيل بنا الحديث إلى معاجم اللغة العربية لنجد:

أن ابـــن منظور الإفريقي التونسي(ت٧١١هـــ) صنّف لسان العرب، وهو أضـــخم معاجم العربية وملأه بالشواهد الشعرية مما لا مثيل له في بقية المعاجم الســـابقة علـــيه، صـــنّفه فـــي هذا القرن. وكذلك صنع أحمد بن محمد الفيومي (ت٧٧٠هـــــ) معجـــــــمه " المصباح المنير" في القرن الثامن أيضاً، وكذلك صنع الفيروز آبادي (ت٨١٧هـــ) قاموسه المحيط فيه أيضاً.

وثمة كلمة تخص الشعر العربي بالذات: إن كتب المختارات الشعرية ابتداءً من المفضليات فالأصمعيات، فالمختارات التي اصطلح على تسميتها بالحماسات مثل حماسة أبي تمام وحماسة البحتري والشجري والزوزني والبصري، وكتب المخـــتارات الشـــعرية التـــي سميت بأسماء أخرى مثل منتهى الطلب والتذكرة الســـعدية والتذكرة الفخرية. كل هذه المختارات والحماسات والتذكـــرات ليس فيها من " الشعر الصافي " كما يسميه لامارتين، وهو الشعر الخالد غير المرتبط بالأشـــخاص أو الأحداث أو المناسبات إلا القليل. لكن هذا القرن انماز بكتاب " مخـــتارات شـــعرية " كان كلّه من الشعر الصافي الخالد عبر الزمن، وأعني به كتـــاب " حدائق الأنوار وبدائع الأشعار " لجنيد بن محمود بن محمد الذي انتهى من تصنيفه سنة ٧٩٠هـــ . لقد اختار مصنفه أكثر من ثمانمائة مقطعة ثلثها في الربيع ومظاهره وثلثها في وصف الأزهار زهرة زهرة وثلثها في وصف الثمار ثمرة ثمرة.

وقــد أسعدني الحظ بتحقيق هذا الكتاب ونشره في بيروت سنة ١٩٩٥، بعد معاناة استمرت عشرين عاماً معتمداً نسخة مخطوطة فريدة في الدنيا٠

وأُضيف أن المكتبة الشعرية العربية تعتز بكتب التشبيهات، وقد طبعت منها ثلاثة: تشبيهات ابن أبي عون إبراهيم بن محمد (ت٣٢٢هـ) بتحقيق محمد عبد المعــيد خــان٠وغرائــب التنبيهات على عجائب التشبيهات لابن ظافر الأزدي (٦٢٣هـــ) بتحقــيق مصــطفى الصاوي وتشبيهات أهل الأندلس لابن الكتاني (ت فــي حدود ٤٢٠هـ) بتحقيق إحسان عباس، لكن القرن الثامن هذا خلّف لنا أوســع وأمــتع كتب التشبيهات الشعرية وعنوانه " الكشف والتنبيه عن الوصف والتشــبيه " صــنّفه الصــفدي٠ وقد حققته عبر عقدين من السنين ودفعته إلى المطبعة. جدير بالذكر أن أدباء الأندلس وهم يرون تساقط المدن الأندلسية بأيدي القشــتاليين الإســبان، بــادروا إلى تصنيف الموسوعات في شتى فنون الأدب وأكتفــي الإشــارة إلــى موسوعتين من كتب المختارات الشعرية هما : جيش التوشــيح للســان الدين بن الخطيب ت (٧٦هـ) و(عدة الجليس) لابن بشري الغرناطي، وكلاهما من وفيات القرن الثامن٠ وقد ضمّ كل كتاب منهما مجموعة متميزة من الموشحات الاندلسية.

هــذا عــدا كــتاب " الإحاطة في أخبار غرناطة " وهو كتاب تراجم وسير طبعت منه أجزاء أربعة.

لقــد كــان عــبد العزيــز بــن سرايا الطائي الحلّي الشهير بصفيّ الدين (ت٧٥٠هـــ)، أبرز شعراء القرن الثامن الهجري على امتداد الوطن العربي٠ وكــان شاعراً كبيراً ومصنفاً شهيراً أيضاً. أما أنه شاعر كبير فيشهد على ذلك ديوانــه الضــخم الذي لم يطبع حتى الآن طبعة علمية. وأمّا أنه مصنف شهير فذاك ما تدل عليه كتبه الثلاثة:

الأول: العــاطل الحالي والمرخص الغالي: وقد نشره المستشرق ولهلم هونرباخ فــي ويسبادن بألمانيا سنة ١٩٥٥ ثم أعاد نشره صديقنا حسين نصار في مصر ١٩٨١ثم أعيد نشر طبعة حسين نصار في بغداد ايضاً٠ وقد خصه

صفي الدين بالشعر الملحون: الزجل والمواليا والكان وكان والقُوما. وهو أهـــم كـــتاب قديم تعرض لهذه الفنون. لكنه لم يدرس حتى الآن دراسة علمية تليق به.

والثانـــي: مخطوطة كتابه" المثالث والمثاني في المعالي والمعاني " ومن نسخة فـــي دمشـــق وأخرى في التيمورية بالقاهرة، ومازال الكتاب يحن إلى التحقيق والنشر.

والثالـــث: " شرح الكافية البديعية " التي نشرت محققة كما ذكرنا فيما تقدم لكنها لم تدرس حتى اليوم دراسة علمية.

ويبقى الحديث بعد هذا عن النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري.

إن الـــنقد الأدبـــي والـــتأريخ له قد تحولا بعد غياب عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـــــ) إلى علم يصوغه المنطق وتغذيه الفاسقة حتى استحال إلى جملة مـــن القواعـــد الجافـــة غاب معها الذوق السليم. وكان ظهور ضياء الدين بن الأثـــير(ت٦٣٧هـــــ) "ومثلُه السائر" بمثابة انتفاضة جديدة للنقد الادبي. ثم عاد النقد بعده إلى رقدته.

حتى إذا جاء الصفدي في القرن الثامن أعاد للنقد الأدبي نكهته وروحه حين جعـــل للـــذوق الأدبي مكانته الرفيعة في العمل النقدي. وقد جسّد آراءه هذه في ثلاثة كتب:

الغيث المسجم في شرح لامية العجم- ولم يطبع حتى اليوم طبعة علمية.

ونصـــرة الـــثائر على المثل السائر- وقد طبع بتحقيق محمد علي سلطاني طبعة علمية.

والثالـــث: كتاب " الاقتصار على جواهر السلك في الانتصار لابن سناء الملك "
وهـــو مخطـــوط، حققته لأول مرة بمشاركة الدكتورة السيدة ظمياء محمد عباس وهو في طريقه إلى القراء إن شاء الله.

وتمثل هذه الكتب الثلاثة قمة تطور النقد الأدبي في القرن الثامن الهجري.

هـــذه أهم سمات العطاء الأدبي والفكري في القرن الثامن الهجري. وبعد: فهـــل يصـــح بعد هذا كله القول: إن القرن الثامن الهجري هو من قرون الفترة المظلمة؟ وهل يصح أن ننظر إلى الحالة الأدبية والفكرية بالمنظار السياسي وأن نقيسها عليه؟